ملامح من الدراسة الصوتية عند ابن حزم الأندلسي

(ت456هـ)

أ/ بن عيسى مهدية
جامعة تلمسان

تتجه الأعناق إلى النّحاة واللّغويين في كل مرة يذكر فيها البحث الصوتي غير أن هذه المجال كان رحبا لاحتضان علماء آخرين له. صُنّفوا في إطارات مختلفة من بينها الإطار الفلسفي، حيث ولج بعض الفلاسفة العرب المسلمين المجال الصوتي هم أيضا. ومن بينهم ابن حزم الأندلسي(ت456هـ)[1] الذي يُعدُّ من الشخصيات البارزة في الحضارة الإسلامية بعامة والأندلسية بخاصة ذلك أنه كان يحمل رؤية متميزة لقضايا عصره فرض نفسه بها على صفحات التاريخ لما تركه من أراء ومواقف وآثار علمية لم يختلف اثنان في أهميتها، منها ما ورد في هذا البحث المتواضع حول بعض القضايا الصوتية التي أشار إليها في طيّات كتبه الكثيرة ذلك أنه لم يكن مختصا في مجال اللّغة بالتحديد، بل كان صاحب مدرسة من أهم المدارس العربية مُلّما بمختلف العلوم من منطق وفلسفة ودين .....

1- ماهية الصوت وعلاقته بفاعله:

لقد عني العلماء العرب - كغيرهم من علماء الأمم الأخرى- بالدّرس الصوتي وهذا في سياق دراسة لغة القرآن الكريم وحمايتها من اللّحن الذي طال اللّسان العربي الفصيح. وقد جاءت نتائجهم في هذا المجال تضاهي ما جاء به

الدّرس الصوتي الحديث، بل "قد سبقوا المحدثين بنتائج مهمة لا يمكن إغفالها"[2] وفي هذا السياق تتنزل قراءتنا لبعض آراء ابن حزم الصوتية.

فالصوت عنده "هواء مندفع من الحلق والصدر والحنك واللسان والأسنان والشفتين إلى آذان السامعين"[3]. فهو يقدم وصفا علميّا مبنيّا على الملاحظة المباشرة للصوت بوصفه حدثا فيزيائيا، حيث يشير إلى النّاحيتين النطقية والسمعية حينما يُقرّأنّ الصوت هواء يندفع من المخرج إلى الأذن، فنكون بذلك أمام النقطة الثانية في الدراسة الصوتية الطبيعية، وهي دور الهواء في نقل الأصوات من مكان خروجها إلى أذن السامع.[4]

وفي الحقيقة فإن هذا التعريف الذي قدّمه ابن حزم ينحو إلى إبراز عناصر عملية التصويت المتمثل في الهواء وأعضاء جهاز التصويت، وهي الصدر والحلق والحنك، اللسان الأسنان والشفتين، وكذا الطرفين المعنيين بالبثّ والاستّقبال (المرسل والمرسل إليه أو المتكلم و السامع) .

كما نجده يستعمل مصطلح الحرف عندما يتحدث عن الكلام؛ أي الصوت الإنساني، كما جاء في قوله: ".... إذ هو إيقاع كلمات مؤلفات من حروف مقطّعات، مَكَّنَ الحكيم القادر له المخارج من الصدر والحلق. وأنابيب الرئة وهيّأ لها الهواء المندفع يقرع اللسان إلى صماخ الآذان ".[5]

والقرع أو القلع أو المصاكّة هو السّبب الرئيسي لإحداث الصوت سواء كان لغويًّا أو طبيعيًّا، الأمر الذي أجمع عليه الفلاسفة المسلمون حين ضبطوا مفاهيمهم بمجموعة من المصطلحات الفلسفية والطبيعية .[6]

وبالعودة إلى كلام ابن حزم الذي يمكن أن يكون دليلا على إدراكه العلاقة الكائنة بين اللّغة وصاحبها، وبعبارة أخرى بين الكلام وفاعله، بوصفه مجموع الأصوات التي يصدرها جهاز نطق إنساني يؤلف بينها لقصد محدد. فالهواء المندفع بالتحريك يكون مُحرّكا، والنّاطق هوا لمحرّك له.[7] فالمتكلم لا

يتسنى له صياغة الكلام إلّا إذا كان مدركا لمحتواه الدلالي قاصدا منه إفهام الغير.

2 – اللفظ :

تتداخل الأحداث الصوتية المنطوق بها وفق مبدأ المواضعة والاصطلاح لتتشكل الألفاظ والكلمات، ومن ثمّ الكلام المعبّر المفيد. وحدّ اللّفظ عنده هو "كلّ ما حرّك به اللّسان ثم هو هواء مندفع من الشفتين والأضراس والحنك والحلق والرئة على تأليف محدود، وهذا هو الكلام نفسه".[8] فهو لا ينظر إلى الحدث الصوتي من حيث هو حدث سلبي، بل من حيث هو جزء أساس في بنية أكبر، لها وظيفتها هي الكلام الذي هو محصلة جهد يبذله المتكلّم وتشارك فيه أعضاء جهاز التصويت يخرج الهواء في أثناء الزفير من الرئتين اللتين تدفعانه إلى الخارج .[9] وكلّما لامس نقطة معينة حدث صوت معين، ففي الحلق الهاء والحاء والعين وفي الشفتين الفاء والباء والميم...الخ.

والملاحظ من تعريفه هذا أنه خصّ مفهوم الصوت وكيفية حدوثه باللفظ،أما اللّغة عنده فهي "ألفاظ يُعبَّر بها عن المسمّيات وعن المعاني المراد إفهامها ".[10]

3- الصوت و الدلالة:

يُفصح بن حزم عن نوع من العلاقات تربط الصوت بالدلالة، وهذا على أساس مبدأين متعارضين هما الطبع والقصد. أو العرف والاصطلاح فهو يرى أن "الصوت الذي يدل على معنى إما أن يدلّ بالطبع كصوت الديك الذي يدل في الأغلب على السحر وكأصوات الطير الدّالة على نحو ذلك كالبلارج والإوز وأصوات الحيوان بالليل كالكلاب في نباحها تدل على رؤيتها لشخص وكأصوات السنانير في دعائها أولادها وسؤالها عند طلبها السقاء، وإما أن يدل الصوت بالقصد وذلك من خصوصيات اللّغة الإنسانية. ومن المتعارف عليه أنّه لادلالة للصّوت اللّغوي مفردا إلا إذا اِلتأم مع غيره في بنية لغوية دالة بالوضع".[11]

يشير في قوله إلى ظاهرة يطلق عليها الدرس الصوتي الحديث اسم onomatopée أو نظرية الحكاية الصوتية، وهي تلك التي يحاكي فيها صوت اللّفظ معناه [12]. وخير من تبنى هذا المذهب من لغويي العرب القدامى العلاّمة بن جني (339هـ) الّذي قال في هذا المجال: "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللّغات كلها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدويِّ الرّيح، وحنين الرّعد وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك. ثم ولدت اللّغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل".[13] لقد ربط بين أصوات الطبيعة حينا وبين أصوات الحيوانات حينا أخر فهو يعزو نشأة اللّغة الإنسانية إلى محاكاة أصوات الطبيعة عند بعض الشعوب، ثمّ تفرّعت اللّغات بعد ذلك.

أمّا بن حزم فقد جعل الصّوت ومعناه نوعين: صوت دال على معنى بالطبع كأصوات الحيوانات، وصوت دال بالقصد والاصطلاح وهذا في اللّغة الإنسانية. كما أكد أنه لا قيمة للصّوت مفردا، وإنّما تظهر دلالته متكاملة مع غيره من الأصوات في اللفظة، أو في مجموعة من الألفاظ بحيث تكون العلاقة بينها وبين معانيها اِصطلاحية لا عرفية.

كما تطرّق إلى تعريف الدلالة وأركانها فهي عنده فعل الدّال. أمّا الدّال فهو المعرف بحقيقة الشيء والدليل اسم يعرف به المسمى، وعبارة يتبين بها المراد[14]. والحديث عن علم المعنى – الدلالة – الذي هو أحد المكونات الأساسية لعلم اللّغة، وعن ركنيه قد يطول بنا في هذا المقام، فمن المأثور عن دي سوسير اعتباطية العلاقة بين الدّال والمدلول. حيث أن الدّال هو الصورة الصوتية التي تنطبع في ذهن السامع أما المدلول فهو الفكرة التي تقترن به .[15]

3- سلامة الجهاز السمعي:

إن حاسة السمع مهمة جدّا في العملية الصوتية، فبغيابها لا يمكن للمستمع من التقاط رسالة المرسل، وفي هذا يقول ابن حزم: "إنّ ما تدركه

النّفس بالعقل والعلم وبتوسّط الصوت مثل تأليف اللّحون وتركيب النّغم ومعاني الكلمات المسموعة، وما أشبه ذلك، إذا إنما تؤدَّى بحاسة السمع وتوسطها "[16].

فالصوت يقطع الأماكن وينتقل فيها ويندفع في الهواء الذي هو" جسم طويل عريض عميق ، فهو محتمل الانقسام ضرورة فذلك الهواء هو الحرف "[17].

الهواء على هذا جسمٌ، ومادام على ذلك فإنه يخضع لما يخضع له الجسم كالحركة من حيث نقله من المكان وزواله عنه، فبمروره في أعضاء جهاز التصويت يؤدي إلى انجاز الحرف نطقيا. فالهواء نتيجة لتحركه يقوم بالنقل ولذلك يعد أسهل سبيل لانتقال الموجات الصوتية بشكل سليم حتى تلتقطها أُذن المرسل إليه.[18]

4- الاستغراق الزمني للأصوات الطبيعية: بعد أن ينشأ الصوت الطبيعي والذي يندرج الصوت الإنساني ضمنه سواء بسبب قرع أو قلع. تنتقل الموجات الصوتية في الهواء إلى الأذن لكن هذه الأصوات تتفاوت فيما بينها من حيث المدة الزمنية التي تبقاها قائمة، فتتوالي الحروف المكونة للكلام المتتابع بتتابع الزمن المتجدد إثر كل انقضاء إذ "ينقضي الأول فالأول من الزمان وكلما تقضى منه فهو فان معدوم "[19] فكذلك إجراء القول، إذا تكلمت عن حروفه ونظمه ومعانيه، فإن كل ما تكلمت به من ذلك فقد فني وعُدمَ، وما لم يُتَكَلَمْ به من ذلك فمعدوم لم يحدث بعد، والذي أنت فيه من كلّ ذلك لا قدرة لك على إثباته، ولا أمساكه، ولا إقراره أيضا. أصلا بوجه من الوجوه، لكن ينقضي أوّلا فأوّل بلا مهلة. [20]

إذن فالصوت من الأمور أو الأفعال غير المستقرّة فهي تفنَى وتعدم لمجرد التلفظ بها.

5- تطور اللهجات: يقول ابن حزم في هذا الشأن، أنّ تطوّر اللّهجات مع مرور الزّمن ينتهي بقيام لغة جديدة، أصلها كان لهجة، ويسجل لنا تعريفات شاعت لدى المتكلمين باللّغة العربية من العوام أو من الأجانب المتعرّبين.[21] فهو

يلاحظ أنّ " العامّة قد بدّلت الألفاظ في اللّغة العربية تبديلا، وهو في البُعْدِ عن أصل الكلمة كلمة أخرى ولا فرق. فنجدهم يقولون في العِنَبِ: العَيْنِبْ وفي السوط، أسطوط، وفي ثلاثة دنانير: ثِلثِدا وإذا تعَرَّب البربري فأراد أن يقول الشجرة قال: السجرة، وإذا تعرّب الجليقي أبدل من العين والحاء هاءاً فيقول "مُهمدَا " إذا أراد أن يقول: مُحمدا".[22]

من كلامه نلاحظ أنّ اللّحن دخل اللغة العربية في بلاد الأندلس، نتيجة اختلاط العرب بالأعاجم، الّذين استعصى عليهم نطق بعض الأصوات العربية خاصة العين والحاء التي أبدلوها بأصوات من نفس مخرجها الصوتي مثل الهاء. ففي (محمداً) قالوا (مهمدا) والسبب في ذلك أن الهاء عندهم أسهل في النطق من الحاء والعين، فهي خفية تُسمع من نفوذ الهواء بقوة في جسم لا يعترض طريقه شيء، فهي كالهواء نفسه ولذالك نعتها ابن جني بالصوت المهتوت .[23]

كما كانوا ينبرون المقطع الأول من الكلمة في كثير من الأحيان ويُطيلون الصائت القصير في بعض الكلمات [24] في مثل: عنب يقولون عنيب.

خاتمـــة:

بعد هذه الدراسة البسيطة المتواضعة لما جادت به قريحة عالمنا الجليل ابن حزم في مجال اللغة، خاصة في الدرس الصوتي العربي خَلُصت إلى ما يلي:

- قِلَّة موروثه الصوتي، ذلك كونه أديبا وفقيها أكثر منه نحويا لغويا.
- لقد تناول الصوت وعرّفه على أنّه هواء متصاعد من الرئة مارا بأعضاء النطق ليصل إلى الشفتين.
- عَدَّ أعضاء النطق من خلال تطرقه للصوت وماهيته؛ وهي عنده الرئة (الصدر) الحلق، الحنك، اللّسان، الأسنان، والشفتان.
- عملية التصويت هي محصلة جهد يبذله المتكلّم تشارك فيه الأعضاء المذكورة آنفا.

- سلامة جهاز السمع عنده مهمة جدّا فلولاها لما تمكّن المستمع من التقاط رسالة المرسل .

- الأصوات الطبيعية تتفاوت من حيث المدة الزمنية التي تبقاها قائمة.

- تطرق لظاهرة الإبدال عند بعض العوام في بلاد الأندلس الّذين استعصى عليهم نطق بعض الأصوات.

الهوامـش :

1- هو الفقيه المجتهد أبو محمد بن حزم، ولد بقرطبة من بلاد الأندلس في آخر يوم من شهر رمضان سنة 384 هـ – 994م نشأ في نعمة سابغة وجاه عريض إذ كان أبوه وزيرا جليلا كبير الشأن. كان ابن حزم حافظا لعلوم الحديث والفقه، والمنطق كثير التأليف، درس في أول أمره فقه المالكية ثم درس مذهب الشافعي ثم انتقل بعد ذلك إلى مذهب الظاهرية. من بين مؤلفاته نذكر: الإحكام في أصول الأحكام، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه، طوق الحمامة..... توفي رحمه الله في بلاد الأندلس أواخر شعبان سنة 465 هـ –ينظر وفيات الأعيان. ابن خلكان 340/1 .

2- النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم الأندلسي، نعمان بوقرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، دط 2004، ص: 26.

3- الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ابن حزم الأندلسي تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة. دار الجيل بيروت، دط، 1985، ص: 9.8/3

4- ينظر الدرس الصوتي عند الفلاسفة العرب المسلمين. رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في اللغة، من إعداد الطالبة أمينة طبيبي، جامعة جيلا لي اليابس سيدي بلعباس، ص52 .

5- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي، تحقيق محمود حامد عثمان دار الحديث القاهرة، ط1، 2005، ص1:/30.

6- لمزيد من التفصيل في هذا الموضوع المتمثل في مصطلحات الدراسة الصوتية الخاصة بالفلاسفة المسلمين يمكن الرجوع إلى الدرس الصوتي عند الفلاسفة العرب المسلمين رسالة دكتوراه أمينة طيبي.

7- ينظر الفصل في الملل والأهواء والنحل: 33/5 .

8- الإحكام في أصول الإحكام: 46/1 .
9- ينظر ، النظرية اللسانية والبيانية عند ابن حزم: ص29، والتفكير اللساني في الحضارة العربية عبد السّلام المسدي، الدار العربية للكتاب ليبيا وتونس دط، 1981: ص255 .
10- الإحكام في أصول الإحكام ص 61.
11- التقريب لحد المنطق والمدخل بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية. ابن حزم الأندلسي تحقيق إحسان عباس، منشورات مكتبة الحياة بيروت لبنان، دط، 1959، ص12.
12- ينظر دلالة الألفاظ. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2،1963، ص 86. واللغة بين ثنائية التوقيف والمواضعة. عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء الأردن، ط1،1997، ص71.
13- الخصائص. ابن جني، تحقيق علي النجار، دار الكتاب العربي لبنان، ط2 1987: /146 هـ-47 .
14- الإحكام في أصول الإحكام، ابن حزم: 1/ 53-54.
15- ينظر، محاضرات في الألسنية العامة فاردينند دي سوسير، ترجمة يوسف غازي ومجيد الخضر دار النعمان للثقافة لبنان، دط، 1984، ص89، 90 .
16- ينظر التقريب لحد المنطق ص 57 .
17- الفصل في الملل والأهواء والنحل: 82/1 .
18- ينظر الدرس الصوتي عند الفلاسفة العرب المسلمين: ص65 .
19- التقريب لحد المنطق: ص50.
20- ينظر: نفسه الصفحة نفسها.
21- ينظر: نظرات في اللغة عند بن حزم الأندلسي. سعيد الأفغاني، دار الفكر بيروت لبنان ط2، 1389هـ -1969 م: ص26.
22- الإحكام في أصول الأحكام: 47/1.
23- ينظر: سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان ابن جني، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، سورية، ط1، 1405 هـ -1985 م: ص 64/1. وينظر المقتضب، محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب لبنان، د ط، د ت: 155/1.
24- التطور اللّغوي مظاهر وعلله وقوانينه، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة، ط2 1410 هـ-1990م : ص129.